منهج النقد عند المحدثين

نشأته وتاريخه

تأليف
الدكتور محمد مصطفى الأعظمي
أستاذ الحديث النبوي بجامعة الملك سعود

ويليه

كتاب التمييز

للإمام أبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري رحمه الله
٢٠٤ - ٢٦١ هـ

طبعة جديدة مزيدة ومنقحة

مكتبة الكوثر

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الطبعة الثانية
١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م
الطبعة الثالثة
١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م

مكتبة الكوثر : المملكة العربية السعودية
المربع ، ص.ب ٨٨٤٥٨ - الرمز ١١٦٦٢
تلفون ٤٠٤١٧٣٢

[بين يدي الطبعة الثالثة]

لقد طبع هذا الكتاب أولا مع كتاب التمييز للإمام مسلم بن الحجاج رحمه الله كمقدمة له في سنة ١٣٩٥ هـ ، وقد دعت الحاجة إلى إعادة طبعه لأن الطبعة الأولى منه قد نفدت منذ مدة ليست بالقصيرة . وقد رأيت أن أفرده في الطبعة الثانية بعنوان مستقل وذلك لأهمية موضوعه ، وحاجة الناس اليوم إليه خصوصاً بعد أن كثرت دعاوى المدعين على الحديث النبوي الشريف وأهله ومنهجهم في نقده لتصحيحه وتضعيفه .

وقد كنت أرغب في أن أوسع بعض البحوث لكنني نظراً لانشغالي في مشروع آخر يتعلق بفهرسة الأحاديث النبوية لم أجد متسعاً من الوقت لما كنت أصبو إليه ، وبالرغم من ذلك وجدت نفسي مضطراً إلى أن أضيف بعض النقاط إلى الطبعة السابقة لأنني اطلعت على بعض الكتب ــ في هذه الفترة ــ وعلى مقالة لها صلة بالموضوع وهي ــ في نظري ــ في حاجة إلى التعقيب .

لذلك فإن القارئ سوف يجد في هذه الطبعة إضافات ليست موجودة في الطبعة الأولى وكذلك بعض التغيير في ترتيب المواد .

وبهذه المناسبة أرى من الضروري أن أشكر الدكتور حسن عيسى أبا ياسين ، وقد استفدت من ملاحظاته اللغوية العديدة ، كما أنه يتحتم علي أن أشكر شركة الطباعة العربية السعودية ، والتي تولت طباعة الكتاب وتصحيح البروفات بسبب سفري إلى أمريكا . فشكر الله لهم جميعاً وأجزل مثوبتهم .

وأخيراً أدعو الله العلي القدير أن يلهمنا الرشد والصواب ويجنبنا الخطأ والضلال ، ويتقبل مني عملي كله خالصاً لوجهه الكريم وينفعني به يوم لا ينفع مال ولا بنون ، اللهم آمين .

والصلاة والسلام على أشرف المسلمين خاتم النبيين محمد المصطفى صلى الله عليه وسلم وعلى آله وأصحابه أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

محمد مصطفى الأعظمي

الدرعية مساكن جامعة الملك سعود.

بالرياض ١٤١٠/٨/٢٤ هـ

من تصدير [الطبعة الأولى]

هذا الكتاب ــ كتاب التمييز ــ لرجل من أشهر الرجال في علم الحديث ، للإمام أبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري رحمه الله . وهو فريد في بابه ، إذ يوضح منهج المحدثين في نقد الأحاديث . والكتاب ــ كما يبدو ــ كبير . لكنا لم نجد إلا خمس عشرة ورقة منه . وعلى الرغم من هذا فإننا نرى أنه لا بد من نشره لتوضيح منهج المحدثين من جهة ، وإحياء تراث عريق أصيل من جهة أخرى .

أما المقدمة فقد كانت في الأصل محاضرات ألقيتها على طلبة قسم الدراسات العليا (الماجستير) بكلية الشريعة بمكة المكرمة ، وهي ذات صلة وثيقة بالكتاب المنشور ، وتوسعت فيها بعض التوسع ، وفيها بعض البحوث مأخوذة من كتابي *Studies in Early Ḥadīth Literature* وهي فضلاً عن ذلك وثيقة الصلة بموضوع النقد ؛ وعلى الرغم من هذا ، فلا تزال هناك جوانب تتطلب مزيداً من الدراسة والبحث ، أرجو أن أتمكن من انجازها في مستقبل قريب إن شاء الله تعالى .

وأرى لزاماً علي أن أشكر صاحب المعالي الأستاذ الدكتور عبد العزيز الفدا مدير جامعة الرياض على تشجيعه لإتمام هذا البحث ، وسعادة الدكتور عبد الله النافع وكيل الجامعة الذي ذلّل العقبات التي كانت قائمة في سبيل الطبع .

كما أشكر الأستاذ عبد الله الماجد الذي أبدى اهتماماً خاصاً وكان لسعيه نصيب كبير في التغلب على مشاكل المطابع .

وأخيراً أحمد الله وأشكره وأسأله ــ وهو الغفار الوهاب ــ أن يتقبله مني خالصاً لوجهه الكريم ، وأسلّم على رسوله المختار صلى الله عليه وسلم . والحمد لله ربّ العالمين .

محمد مصطفى الأعظمي
كلية التربية

الرياض
رجب سنة ١٣٩٥ هـ

مقدمة

يشهد العالم الإسلامي نهضة مباركة في الاستفادة من السنة النبوية ومحاولة التحاكم إليها في الشئون كلها ، ومن جهة أخرى تكتشف مخطوطات جديدة كان يُظن أنها مفقودة ، فأصبحت مكتبة السنة النبوية أحسن بكثير مما كانت عليه قبل قرن أو قرنين من الزمان . وأصبح الاعتناء بها أفضل مما كان من قبل .

في هذه النهضة قد ساهم ويساهم الشباب والشيوخ ، طلبة العلم والباحثون كل حسب قدرته ــ والله هو المسئول ــ أن يجازينا جميعاً بما هو أهله من فضل وكرم وعفو وغفران .

في هذه النهضة والبناء يشعر كل فرد أنه مدعو أن يدلي بدلوه إن كان يقدر على ذلك ، ولذلك ظهرت كتب عديدة في الآونة الأخيرة كل منها يحاول أن يجلي جانباً من الجوانب ، فقد صدر كتاب بعنوان « منهج النقد التاريخي عند المسلمين والمنهج الأوروبي » للدكتور عثمان موافي من جامعة الاسكندرية . ولعل الكتاب أطروحة الدكتوراه للمؤلف . وأقل ما يقال عن المؤلف إن معرفته بمصطلح الحديث لم تسعفه ليعطي الموضوع حقه بل إذا أخذ المرء بحرفية ما كتبه الدكتور موافي في « خلاصة البحث ونتائجه » لوصل إلى إنكار السنة النبوية بكاملها .

قال الدكتور عثمان موافي : « تحدثنا في الفصل الأول منه عن نشأة الرواية وتطورها منذ كانت رواية بسيطة ساذجة إلى أن أصبحت علماً ذا قواعد وأصول ومن خلال هذا الحديث وعلى ضوئه اتضح لنا :

أ ــ أن الرواية كانت بسيطة ساذجة في الجاهلية ثم تطورت بتطور العصر وارتقت برقيه حتى أخذت قبيل الإسلام صفة علمية لكنها لم تصبح علماً ذا قواعد وأصول إلا بعد الإسلام وبدء ذلك عصر الزهري .

ب ــ من مظاهر علمية الرواية بعد الإسلام التثبت والتحري ثم الشهادة على السماع التي تطورت أخيراً إلى ظاهرة الإسناد .

جـ ــ لم يظهر الإسناد إلا بعد الفتنة سنة ٤٠ هـ »[1] .

إن كانت تلك هي نتيجة البحث الذي توصل إليه الدكتور عثمان بالنسبة لظهور الإسناد فماذا يقول عن كتب السنة التي تذكر لنا الأسانيد التي تصل إلى مئات من الصحابة الذين ماتوا قبل الأربعين من الهجرة بل تصل إلى العهد المدني من حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم . إذن يجب أن تكون هذه الأسانيد كلها كذباً تنسب إلى الصحابة بهتاناً وإفكاً . وإني لأرجو مع ذلك أن أكون قد أسأت فهم كلام الدكتور عثمان .

أما الكتاب الآخر في هذا الموضوع أو بتعبير أدق بعنوان منهج النقد فهو كتاب الدكتور نور الدين عتر « منهج النقد في علوم الحديث » .

ويمتاز كتاب الدكتور عتر بحسن التقسيم والتفصيل . . . كما جاء في تقريظ الأستاذ محمد أبو شهبة ، حيث قال في معرض تقسيمه وتفصيله : « فجعل ما يتعلق بالمتن في أنواع علوم الحديث أو قواعد الحديث على حدة ، وما يتعلق بالأسانيد على حدة وما يجمع بين الأسانيد والمتون على حدة »[2] .

كنت أتمنى أن كان الشيخ أبو شهبة أتحفنا برأيه مقارناً بكتابات الدكتور محمد السماحي الذي ألّف عدة كتب في هذا الموضوع ، منها :

منهج الحديث في علوم الحديث .

وكذلك كتاب الشيخ القاسمي رحمه الله المسمى بقواعد التحديث .

---

(١) منهج النقد ــ عثمان موافي ٢٢٥ .

(٢) منهج النقد في علوم الحديث ص ٧ــ٨ .

على كل ما عمله الدكتور نور الدين عتر هو أنه غيّر تبويب مصطلح الحديث ثم سماه «منهج النقد في علوم الحديث».

والأمر الذي يلاحظ في كتابة نور الدين عتر أنه لم يفرق بين الأدوار المختلفة لمصطلح الحديث، وخواص كل عصر منها، هذا من جهة، ومن جهة أخرى لم يفرق بين منهج النقد ونتيجة النقد. وما ذكره باسم منهج النقد ليس هو منهج النقد عند المحدثين الأوائل، بل هو منهج المتأخرين من المحدثين، الذي هو في الواقع نتيجة النقد عند المتقدمين.

وللتوضيح أقول:

ينقسم تطبيق المصطلح ثلاثة أدوار رئيسية، ولكل سيماه.

فالدور الأول خاص بالصحابة رضوان الله عليهم أجمعين.

ومن أهم ميزات هذا الدور هو تعديل كافة الصحابة[٣] وقبول أحاديثهم حتى المرسلة[٤] بدون نكير[٥].

أما الدور الثاني فيبدأ بالتابعين وينتهي إلى منتصف القرن الرابع تقريباً وهذا الدور هو من أهم الأدوار بالنسبة لقوانين المصطلح وتطبيقها. وكان من خصائص هذا

---

(٣) من عقيدة أهل السنة تعديل كافة الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين وسيبحث هذا الموضوع بالتفصيل إن شاء الله تعالى في الباب السادس.

(٤) اختلفت الأقوال في تعريف الحديث المرسل:

قال ابن الحاجب: المرسل قول غير الصحابي: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وقال بعضهم: المرسل قول التابعي: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وقال آخرون: المرسل قول التابعي الكبير كعبيد الله بن عدي بن خيار وابن المسيب: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (انظر الباعث الحثيث ٤٧ ــ ٤٨).

أما مرسل الصحابة فله مفهوم آخر قال ابن حجر: مرسل الصحابي ما يرويه من الأمور التي لم يدرك زمانها بخلاف الأمور التي يدرك زمانها فإنها لا يقال إنها مرسلة. (فتح الباري ٨: ٧١٦).

(٥) قال النووي في التقريب (١: ١٩٨): «ثم المرسل حديث ضعيف عند جماهير المحدثين والشافعي وكثير من الفقهاء وأصحاب الأصول» (انظر أيضاً م المقدمة ص ٣٠) ثم قال النووي (في ص ٢٠٧) «أما مرسله ــ أي مرسل الصحابي ــ فمحكوم بصحته على المذهب الصحيح» وأطبق عليه المحدثون والأصوليون والفقهاء وخالفهم في ذلك أبو إسحاق الاسفرائيني (انظر تدريب الراوي ١: ٢٠٧) و(الباعث الحثيث ٤٩). وليس لمخالفته أي وزن في هذا المجال.

الدور التنفير الشديد عن عدالة الرواة وضبطهم وإتقانهم.

ويعتبر هذا الدور أشد الأدوار قسوة وصرامة في تطبيق قوانين المصطلح.

أما الدور الثالث: فيبدأ من منتصف القرن الرابع تقريباً. وبدأ فيه التساهل في تلقي العلم والتهاون في تطبيق المصطلح وحصل التغيير في شروط قبول الرواية وفي التعديل والتجريح وانتفت الصرامة والقسوة اللتين كانتا ظاهرتين في الدور الثاني.

وبما أنه كان قد بدأ التنزل في المستوى الخلقي عند المسلمين من بعد عهد النبوة ــ على صاحبها الصلاة والتسليم، وذلك مستمر حتى الآن ــ وحدثت أمور أخرى فقد استدعت تخفيف الشروط على الرواة والتساهل في تطبيق قواعد المصطلح.

وأهم الأسباب التي دعت إلى هذا التنازل هو جمع وتدوين وتصنيف الأحاديث النبوية في الكتب المعروفة بحيث أصبح الناس يتناقلون ــ على وجه العموم ــ كتباً مؤلفة بكاملها.

فالرجل الذي يبني داراً ويرغب في متانتها عليه أن يسعى في جمع المواد البنائية من نوع جيد، ثم عليه أن يراقب عملية البناء بالاستمرار. لكنه بعد إتمام البناء يمكن نقل ملكيتها كاملة إلى رجل آخر، ومن الواضح أن صاحبها الجديد لم ولن يشق مثل الباني الأول في تعهده. فرجال الدور الثاني هم الذين ألّفوا هذه الكتب من المصادر العديدة الكثيرة ثم تركوا لنا بناية شامخة، فلم يبق للناس مجال في جمع شتات المواد من هنا وهناك. وقد يكون هذا هو السبب الأساسي في تخفيف قسوة الشروط بالنسبة للرواة ومروياتهم وعلى هذا ما كان شاذاً أصبح قاعدة فيما بعد ذلك.

لا شك أن البخاري رحمه الله استدل بقصة محمود بن الربيع أنه عقل مجة مجّها رسول الله صلى الله عليه وسلم على أساس أنه يمكن أن يعي العلم ولد عمره خمس سنوات[٦] لكنه يصعب علينا الحصول على أمثلة من هذا النوع في الدور

---

(٦) خ، كتاب العلم باب متى يصح سماع الصغير.

الثاني . بل رأينا أن الطلبة كانوا يبدأون بالدراسة في حدود الخامسة عشرة من أعمارهم[٧] ، لكنه في الدور الثالث تطورت الأمور .

قال النووي : « ونقل القاضي عياض رحمه الله : إن أهل الصنعة حدّدوا أول زمن يصح فيه السماع بخمس سنين »[٨] .

وقال ابن الصلاح : « وعلى هذا استقر العمل بين أهل الحديث فيكتبون لابن خمس فصاعداً (سمع) وإن لم يبلغ خمساً حضر أو أُحضر »[٩] ونجد هذا النوع من السماع في كثير من المخطوطات القديمة[١٠] .

وأين هذا من تشدد المتقدمين ؟

قال جعفر بن محمد الصباغ : « اجتمع عفان وابن المديني وأبو بكر بن أبي شيبة وأحمد بن حنبل .

فقال عفان : ثلاثة يضعفون في ثلاثة ، علي في حماد ، وأحمد في إبراهيم بن سعد ، وأبو بكر في شريك .

فقال علي : وعفان في شعبة .

قلت [القائل هو الذهبي] هذا منهم على وجه المباسطة ، لأن هؤلاء من صغار مَن كتب عن المذكورين »[١١] .

ولقد ضُعّف عمرو بن هاشم البيروتي في روايته عن الأوزاعي ، لأنه كان صغيراً حين كتب عن الأوزاعي[١٢] .

وقال نعيم ، سمعت ابن عيينة يقول : « لقد أتى هشام بن حسان عظيماً بروايته عن الحسن . قيل لنعيم : لِمَ ؟ قال : لأنه كان صغيراً »[١٣] .

---

(٧) انظر تفصيل ذلك في دراسات في الحديث النبوي وتاريخ تدوينه ص ٣٦٨ ـ ٣٦٩ .

(٨) تدريب الراوي ٢:٥ .

(٩) تدريب الراوي ٢:٥ـ٦ .

(١٠) انظر مثلاً سنن ابن ماجة ، الفاتح رقم ٧٦٤ ، الورقة ٢٣٣ ـ ١ .

(١١) الميزان ٣:٨٢ .

(١٢) الجرح والتعديل للرازي ٣/١:٢٦٨ ؛ الميزان ٣:٢٩٠ .

(١٣) تقدمة الجرح والتعديل ٤٣ ؛ الكفاية ٥٤ .

وكما تساهل المحدثون في تحمل العلم وسِنِّه ، تنازلوا عن الشروط التي يجب اجتماعها فيمن يوصف بأنه : ثقة .

قال الخطيب البغدادي عن أبي بكر بن خلاد المتوفى سنة ٣٥٦ هـ إنه ما كان يعرف شيئاً من العلم غير أن سماعه صحيح .

قال الألباني : ومع ذلك فقد وثقه أبو نعيم وكذا ابن أبي الفوارس ، وقال لم يكن يعرف من الحديث شيئاً . ثم ذكر الألباني بأن الذهبي علق عليه في سير أعلام النبلاء (١٠/١/١٦٠ ـ ٢) بقوله : «فمن هذا الوقت ، بل وقبله صار الحفاظ يطلقون هذه اللفظة (ثقة) على الشيخ الذي سماعه صحيح بقراءة متقن وإثبات عدل . وترخصوا في تسميته بالثقة . وإنما الثقة في عرف أئمة النقد كانت تقع على العدل في نفسه، المتقن لما حمله، الضابط لما نقل، وله فهم ومعرفة بالفن فتوسع المتأخرون»[١٤] .

هذه بعض الملامح العامة للأدوار الثلاثة في مجال تطبيق قواعد المصطلح وشروط الرواة والرواية . ومن ناحية أخرى فإن هناك فرقاً جوهرياً بين منهج النقد عند المتقدمين وبينه عند المتأخرين .

الناقد الآن إذا أراد أن ينتقد حديثاً فيبدأ بدراسة رجال الإسناد وما قيل فيهم ، ليعرف مراتبهم من الجرح والتعديل ، ويبحث عن اتصال الأسانيد وكذلك عن الشذوذ والعلل وغير ذلك من الأمور ثم يحكم على الإسناد وبالتالي على الحديث ، لكنَّ العمود الفقري في دراسته للإسناد هو معرفة أقوال علماء الجرح والتعديل في راوٍ ما ، سواء أكان ثقة ، ثبتاً ، حجة ، صدوقاً ، مستوراً ، مجهولا أم كذاباً .

فيبدأ بحثه من هذه النقطة . بينما هذه النقطة ـ وهي نقطة البداية الآن ـ كانت نهاية المطاف ـ تقريباً ـ بالنسبة للمتقدمين . هذه كلمات الجرح أو التعديل لم تكن جزءاً من منهج نقدهم بل كانت نتيجة انتقاداتهم ، كان يصل إليها الناقد

---

(١٤) انظر فهرست مخطوطات الحديث بالظاهرية للألباني ١٣٥ .

بعد بحث مضنٍ طويل ، ومن ثم كان يصدر أحكامه بتلك الكلمات الاصطلاحية . وإذا شبهنا العملية بكاملها في لغة الجامعات فيمكننا أن نشبهها بأن الطالب يدرس في الكليات لسنين عديدة ويمر باختبارات متعددة ثم في نهاية المطاف يستخرج من عمادة القبول والتسجيل المعدل العام وبعد ذلك تعلن النتيجة بنجاح الطالب بتقدير كذا أو برسوبه . فهذه الكلمة القصيرة وراءها دراسة سنين مضنية واختبارات مرهقة .

وبعد حصول الطالب على الشهادة تتعامل الجهات المعنية معه في ضوء تلك الشهادة المعطاة له ، والتقدير المذكور فيه ، وتحكم له أو عليه في ضوئها عند اختياره للوظائف الشاغرة . فإذاً مهما رتَّبنا من جديد علوم مصطلح الحديث وسميناه (بمنهج النقد) أو بأي اسم آخر فهو في الواقع لا يعطينا فكرة صحيحة عن منهج النقد الأصيل الذي تبعه المحدثون الأوائل والنقاد الجهابذة بل يعرِّفنا بجانب واحد من منهج المتأخرين ــ وهو كما ذكرت ــ يختلف اختلافاً جوهرياً عن منهج المتقدمين في سيرهم في البحث. إذ نحن نبدأ رحلتنا في هذا المجال من حيث انتهى الأوائل. والشيء الذي نحتاج إليه هو أن نفهم منهج المحدثين الأوائل لنزداد بصيرة واقتناعاً بصحة منهجهم، مبنياً ذلك كله على العلم والمعرفة لا على مجرد العاطفة.

وإذا كان ذلك كذلك، فكتاب الدكتور نورالدين عتر لا يوصلنا إلى أعماق منهج البحث عند المحدثين الأوائل.

وفي الواقع الخطوة الجوهرية الأولى في منهج المحدثين كانت معارضة الروايات بشتى أشكالها .

والخطوة الثانية استعمال العقل ــ في حدوده الطبيعية ــ في نقد الروايات . فقد غفل عن هذا المنهج كثيرون ممن لهم اعتناء بدراسة السنة النبوية فضلاً عن غيرهم من الباحثين والمستشرقين .

وعلى هذا فآمل أن يسد هذا الكتاب بعض الفراغ في هذا الموضوع وأن يكون بداية خطوة في سبيل تفهم المنهج المتبع لدى المحدثين الأوائل في نقد الحديث . وعلى هذا تشتمل هذه الرسالة على مقدمة وسبعة أبواب .

الباب الأول يتحدث عن النقد ومفهومه وتاريخه .

وبما أن منهج النقد عند المحدثين يشتمل على البحث والتنقيب في الراوي من زاويتين ، هما :

١ ــ مدى تدين الراوي والذي يسمى بالعدالة .

٢ ــ ومدى تحصيله للعلم والذي يسمى بالضبط والإتقان ،

لذلك فقد خُصِّص البابان الثاني والثالث لمنهج النقد . وعلى هذا ،

فالباب الثاني يتحدث عن العدالة والطريق إلى معرفتها ،

والباب الثالث يتكلم عن الضبط والإتقان والطريق إلى معرفتهما ،

أما الباب الرابع فيتعلق باستعمال العقل في نقد الأحاديث ويلقي ضوءاً على مكانة العقل عند المحدثين في نقد الأحاديث النبوية .

والباب الخامس خاص بالمقارنة بين منهجي نقد الحديث والتاريخ إذ كثر الكلام في الآونة الأخيرة حول منهج النقد التاريخي وما يمكن أن يفيد منه المحدثون .

والباب السادس يتعلق بدراسة بعض الطعون الموجهة إلى منهج المحدثين ، وخاصة فيما يتصل بتعديلهم الصحابة كافة .

والباب السابع يتكلم عن بعض المستشرقين ومنهج نقدهم للحديث ويبين أن الجهود الاستشراقية في هذا المجال إن هي إلا إدعاء وسوء فهم وسوء قصد .

وأخيراً أدعو الله العلي القدير أن يلهمنا الصواب ويجنبنا الخطأ والضلال وهو الهادي إلى سواء السبيل .

وصلى الله على سيدنا محمد النبي المختار وعلى آله وأصحابه الأطهار ومن تبعهم بإحسان في كل الأدوار والأعصار ، اللهم آمين .

الباب الأول

النقد عند المحدثين : نشأته وتاريخه وأدواره

وجوب إطاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

كمال شريعة الله :

أرسل الله سبحانه وتعالى محمداً صلى الله عليه وسلم خاتماً للأنبياء والمرسلين ، وأتم عليه وعلى أمته نعمه الظاهرة والباطنة ، فقال جل وعلا : ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً ﴾ [المائدة ٣] .

وجعله على شريعة من الأمر وأوجب عليه اتباعها ، فقال عز من قائل :

﴿ ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون ﴾ [الجاثية ١٨] .

وأوجب عليه صلى الله عليه وسلم البلاغ فقال :

﴿ يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته ، والله يعصمك من الناس ﴾ [المائدة ٦٨] .

وقد أدّى نبينا صلى الله عليه وسلم الأمانة وقام بالتبليغ خير قيام ، وترك لأمته كتاب ربه كاملاً دون زِيادة أو نقصان .

الكتاب والسنة مصادر شريعة الله :

حفظ شريعة الله :

وتكفل الله سبحانه وتعالى ــ بمحض ألطافه وكرمه ــ بحفظ كتابه من كل عابث ، فقال جل وعلا :

﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾ [الحجر ٩] .

وبذلك ضمن الله سبحانه وتعالى حفظ كتابه أصالة ، كما ضمن لنا حفظ سنة نبيه تبعاً ، لأن سنته شارحة ومبيِّنة لما في القرآن . قال الله تعالى :

﴿ وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نـزل إليهـم ولعلهـم يتفـكرون ﴾ [النحل ٤٤] .

وأخبر الله سبحانه وتعالى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : ﴿ ومـا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى ﴾ [النجم ٣] .

وأخبر عنه في موضع آخر من كتابه الـكريم ، فقـال : ﴿ يـأمرهم بـالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبـائث ويضـع عنهم إصرهـم والأغلال التي كانت عليهم ﴾ [الأعراف ١٩٧] .

ومن ثم أوجب علينا طاعته ، فقال سبحانه :

﴿ من يطع الرسول فقد أطاع الله ﴾ [النساء ٨٠] .

وقال : ﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾ [الحشر ٧] .

وقال : ﴿ يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منـكم ، فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بـالله واليـوم الآخـر ﴾ [النساء ٥٩] .

وقال : ﴿ يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسـوله ولا تـوَلَّوْا عنـه وأنـتم تسمعون ﴾ [الأنفال ٢٠] .

وقال : ﴿ وأطيعوا الله ورسوله ولا تنـازعوا فتفشـلوا وتـذهب ريحـكم ﴾ [الأنفال ٤٦] .

وقال : ﴿ وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول فإن تـوليتم فـإنما على رسـولنا البـلاغ المبين ﴾ [التغابن ١٢] .

وقال تعالى : ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم ﴾ [آل عمران ٣١] .

وقال الله تعالى : ﴿ لقد كان لكم في رسول الله أسـوة حسـنة ﴾ [الأحـزاب ٢١] .

وقال تعالى : ﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً ﴾ [النساء ٦٥] .

وقال تعالى : ﴿ إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون ﴾ [النور ٥١] .

وطاعة النبي صلى الله عليه وسلم بعد وفاته إنما تكون في اتباع سنته ، ولو لم يكن الأمر كذلك لانتهت رسالة النبي صلى الله عليه وسلم بعد وفاته ، وهذا مناف لخلود الإسلام .

وجوب نشر السنة النبوية :

وبما أن القرآن قد كُتب له البقاء إلى يوم القيامة ، وشريعته خالدة كذلك ، فقد أمر النبي صلى الله عليه وسلم أمته بالتبليغ عنه ، وذلك لاستمرار سنته وشريعته .

روى ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « نضَّر الله عبداً سمع مقالتي فحفظها ووعاها وأداها ، فرب حامل فقه غير فقيه ، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه »[1] .

وعن زيد بن ثابت ، قال ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : « نضَّر الله امرأً سمع منا حديثاً فحفظه حتى يبلغه غيره ، فإنه رب حامل فقه ليس بفقيه ، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه . . . »[2] .

وقال جبير بن مطعم ، قام رسول الله صلى الله عليه وسلم بالخيف من منى فقال : « نضَّر الله امرأً سمع مقالتي فوعاها وأداها إلى من لم يسمعها فرب حامل فقه لا فقه له ، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه »[3] .

---

(١) الرسالة للشافعي ٤٠١ ، أيضاً بدائع المنن ١ : ١٤ ، حم ١ : ٤٣٧ ، ت ٣ : ٣٧٢ ، جه ١ : ٥٢ ، صحيح ابن حبان ١ : ٢٢٦ ، ٢٢٧ ، جامع بيان العلم ١ : ٤٠ .

(٢) حم ٥ : ١٨٣ ، أيضاً د الحديث ٣٦٦٠ ، دي ١ : ٧٥ ، ت ٣ : ٣٧٢ ، جه ١ : ٥٢ ، صحيح ابن حبان ١ : ٢٢٥ ، المستدرك ١ : ٨٨ ، جامع بيان العلم ١ : ٣٩ .

(٣) حم ٤ : ٨٠ ، أيضاً دي ١ : ٦٥ ، المستدرك ١ : ٨٦ ـ ٨٧ ، جامع بيان العلم ١ : ٣٩ .

وكذلك روى نحوه عن النبي صلى الله عليه وسلم النعمان بن بشير[٤] ، وأبو بكرة[٥] وأنس بن مالك[٦] رضوان الله عليهم أجمعين .

ولم ينهض النبي صلى الله عليه وسلم بأمر التبليغ فحسب ، وإنما عمد إلى ترغيب المسلمين فيه ، إذ ذكر لهم من فضل القيام به ما ينشط همتهم ، من ذلك قوله صلى الله عليه وسلم :

« من سلك طريقاً يطلب فيه علماً سهل الله به له طريقاً إلى الجنة »[٧] .

وروى صفوان بن عسال المرادي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال :

« ما من خارج يخرج من بيته يطلب العلم إلا وضعت له الملائكة أجنحتها رضىً بما يصنع »[٨] .

وروى نحوه أبو الدرداء عن النبي صلى الله عليه وسلم[٩] .

لكن النبي صلى الله عليه وسلم لم يترك الباب مفتوحاً على مصراعيه ، فكما أنه عليه الصلاة والسلام أوجب التبليغ ، ورغّب في التعليم ، وأمر الناس بالرواية عنه ، كذلك حذّر من الكذب عليه ، وبيّن عواقبه قائلاً : « من كذب عليّ فليتبوأ مقعده من النار »[١٠] .

وقال : « من يقل عليّ ما لم أقل فليتبوأ مقعده من النار »[١١] .

---

(٤) المستدرك ١ : ٨٨ .

(٥) جامع بيان العلم ١ : ٤٠ ـ ٤١ .

(٦) حم ٣ : ٢٢٥ .

(٧) العلم لأبي خيثمة ، الحديث ٢٥ ، أيضاً حم الحديث ٧٤٢١ ، د الحديث ٣٦٤٣ ، المستدرك ١ : ٨٨ .

(٨) صحيح ابن حبان ١ : ٢٤٣ ـ ٢٤٤ ، أيضاً العلم لأبي خيثمة ، الحديث ٥ ، حم ٤ : ٢٣٩ ، المستدرك ١ : ١٠٠ .

(٩) حم ٥ : ١٩٦ ، دي ١ : ٩٨ ، د الحديث ٣٦٤٩ ، جه ١ : ٥٠ ، جامع بيان العلم ١ : ٤٥ .

(١٠) خ العلم ٣٨ ، وهو حديث متواتر .

(١١) خ العلم ٣٨ .

الخطأ في رواية الأحاديث النبوية :

الخطأ من فطرة الإنسان :

بالرغم من هذا ، فالإنسان قد يخطئ ، وقالوا قديماً : إن الإنسان مركب من الخطأ والنسيان . وقال الله سبحانه تعالى حاكياً عن آدم أبي البشر :

﴿ ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزماً ﴾ [طه ١١٥] .

فالإنسان قد يخطىء بالنسيان، وقد «يخطىء» بالتعمد، لكن النتيجة في الحالتين واحدة بالنسبة لصدق الحديث وكذبه ، وبما أن أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم وسنته مصدر للتشريع وأسوة للمؤمنين ونبراس للمسلمين إلى يوم القيامة ، لذلك كان لا بد من تنقيتها من شوائب الأخطاء كافة ، سواء أكان ذلك بالنسيان أم بالتعمد .

ضرورة النقد في الأحاديث النبوية :

وعلى هذا كان لا بد من نقد الأحاديث المضافة إلى النبي صلى الله عليه وسلم نقداً علمياً دقيقاً ، لمعرفة صحيحها من سقيمها لئلا يدخل في الإسلام ما ليس منه .

النقد لغة :

قال في اللسان : النقد والتنقاد ، تمييز الدراهم وإخراج الزيف منها .

النقد عند المحدثين :

يمكن تعريفه بأنه تمييز الأحاديث الصحيحة من الضعيفة ، والحكم على الرواة توثيقاً وتجريحاً[١٢] .

---

(١٢) انظر تقدمة الجرح والتعديل ٥ ــ ٦ .

دوافع النقـــد :

لم يكن النقد في الحديث لمجرد إشباع رغبة علمية جامحة ، بل كانت الدوافع إليه أعمق وأدق .

إن الله جلَّ وعلا أنزل كتابه ، ووكل تبيينه لنبيه ، فقال عز مِنْ قائل : ﴿ وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ﴾ [النحل ٤٤] . ولبث رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثاً وعشرين سنة يفرض الفرائض ويسن السنن ويحرم الحرام ويحلُّ الحلال ، وأصبحت معرفة ديننا ــ وهو عصمة أمرنا وسبيل نجاحنا في دنيانا وآخرتنا ــ موقوفة على معرفة سنته والصحيح من آثاره والعمل به . ولا يتأتى ذلك إلا بالفحص عن النقلة والبحث عن أحوالهم ، ليؤخذ بكلام الصادقين ويعمل به ويرمي كلام الكاذبين ويدفن أو يروى فيبين ويشهر به .

ولذلك قال الإمام مسلم رحمه الله :

« فإذا كان الراوي لها ليس بمعدن للصدق والأمانة ، ثم أقدم على الرواية عنه من قد عرفه ولم يبيِّن ما فيه لغيره ، ممن جهل معرفته ، كان آثماً بفعله ذلك ، غاشّاً لعوامّ المسلمين . . . »[١٣] .

ولذلك شمر العلماء عن سواعدهم واحتملوا في سبيل الحديث كل عناء ومشقة ــ وهم راضون ــ ليميزوا الخبيث من الطيب ، ولو كان الأمر لمجرد إشباع رغبة علمية لما كابدوا كل هذه المشاق .

وكلام يحيى بن سعيد القطان يلقي بعض الأضواء على ما نحن بصدده ، ويظهر لنا أحاسيسهم ويرينا خلجات نفوسهم .

قال أبو بكر بن خلاد : « دخلت على يحيى بن سعيد في مرضه ، فقال لي : يا أبا بكر ما تركت أهل البصرة يتكلمون ؟ قلت : يذكرون خيراً ، إلا أنهم يخافون عليك من كلامك في الناس . فقال : احفظ عني ، لأنْ يكون خصمي في الآخرة رجل من عرض الناس أحب إلي من أن يكون خصمي في الآخرة النبي صلى الله

---

(١٣) مقدمة صحيح مسلم ١ : ٢٨ . والمقصود بعوام المسلمين من ليس من أصحاب الاختصاص والمعرفة .

عليه وسلم ، يقول : بلغك عني حديث وقع في وهمك أنه عني غير صحيح ــ يعني فلم تنكر »[14] .

نشأة النقــد :

في الواقع بدأ البحث والتنقيب في أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم في حياته[15] وما كان الأمر يعدو في حينه سؤال النبي صلى الله عليه وسلم نفسه . وهذا الاستفسار كان على نطاق ضيق جداً . إذ الصحابة ما كانوا يكذبون ولا يكذب بعضهم بعضهم الآخر . بل كان غاية البحث في ذلك الوقت هو التدقيق ، بل هو نوع من التوثيق للطمأنينة القلبية . ولهم في ذلك أسوة في سيرة أبي الأنبياء عليه السلام : ﴿ وإذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى ؟ قال : أو لم تؤمن ؟ قال : بلى . ولكن ليطمئن قلبي ﴾ [البقرة ٢٦٠] .

ومحال أن يكون إبراهيم عليه السلام قد شك في قدرة الله سبحانه وتعالى ، وهكذا كان تدقيق الصحابة في حياة النبي صلى الله عليه وسلم لمزيد من الاطمئنان القلبي لا غير . وهناك أمثلة عديدة تدل على توثيق الصحابة عن النبي صلى الله عليه وسلم ، مدفوعين بهذه الغاية ، ولعل من المفيد أن نسوق بعضاً منها :

أمثلة توثيق الصحابة عن النبي صلى الله عليه وسلم

المثال الأول :

جاء ضمام بن ثعلبة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « يا محمد ، أتانا رسولك ، فزعم لنا أنك تزعم أن الله أرسلك ، قال : صدق . . . قال ، وزعم رسولك أن علينا زكاة في أموالنا . قال : صدق . . . قال ، وزعم رسولك أن علينا صوم شهر رمضان في سنتنا . قال : صدق . . . »[16] .

---

(١٤) شرح علل الترمذي لابن رجب ٤٣ ــ أ . وانظر تحذير الخواص ص ١١٩ .

(١٥) انظر مقدمة المعلمي على تقدمة الجرح والتعديل ص : ب .

(١٦) م الإيمان ١٠ ، انظر أيضاً خ العلم ٦ .

المثال الثاني :

« قدم عليٌ رضي الله عنه من اليمن بهدي وساق رسول الله صلى الله عليه وسلم من المدينة هديا ، وإذا فاطمة قد لبست ثياباً صبيغاً ، واكتحلت ، قال : فانطلقت محرِّشاً ، أستفتي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقلت : يا رسول الله إن فاطمة لبست ثياباً صبيغاً واكتحلت ، وقالت : أمرني به أبي صلى الله عليه وسلم قال : صدقت ، صدقت ، أنا أمرتها »[١٧] .

المثال الثالث :

« . . . أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ يوم الجمعة البراءة وهو قائم يذكر بأيام الله وأُبي بن كعب وجاه النبي صلى الله عليه وسلم ، وأبو الدرداء وأبو ذر ، فغمز أُبي بن كعب أحدهما ، فقال : متى أنزلت هذه السورة يا أُبي ؟ فإني لم أسمعها إلا الآن . فأشار إليه أن اسكت . فلما انصرفوا ، قال : سألتك متى أنزلت هذه السورة فلم تخبر . قال أُبي : ليس لك من صلاتك اليوم إلا ما لغوت . فذهبت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكرت ذلك له وأخبرته بالذي قال أُبي ، فقال : صدق أُبي »[١٨] .

المثال الرابع :

كان سيدنا عمر وجاره من الأنصار يتناوبان النزول على النبي صلى الله عليه وسلم ، قال عمر : « فإذا نزلت جئته من خبر ذلك اليوم من الأمر وغيره ، وإذا نزل فعل مثله ، فنزل صاحبي يوم نوبته ، فرجع عشاء ، فضرب بابي ضرباً شديداً ، وقال : أثمّ هو؟ ففزعت ، فخرجت إليه . وقال : حدث أمر عظيم . قلت : ما هو؟ أجاءت غسان ؟ قال لا . بل أعظم منه وأطول ، طلق رسول الله صلى الله عليه وسلم نساءه » . . . « فذهب عمر واستأذن النبي صلى الله عليه وسلم

---

(١٧) ن ٥:١١١ .

(١٨) حم ٥:١٤٣ ، أيضاً جه إقامة ٨٦ .